خلف الصمت المطبق،
أحدهم يميل إلى اجتثاث شيء ما وتصويره،
وهناك من يقف أمام الصمت، هكذا. بكل بساطة الوقوف.

***

تعطي الأسماء هوية للأشياء، وماديّة للمشاعر، لكنّها لا تعطي بالضرورة المعنى. ليس كلّ ما نسمّيه حقيقيّ، وليس كل ما لا يحمل إسما غير موجود. ليست كلّ الأسماء وفيّة لحامليها ولا تستوعب كل النعوت أبعاد المنعوت وتقلّباته. في الفجوة الضئيلة بين الإسم والمسمّى، يرسم محمد أمين إينوبلي المُحتمل والممكن فقط هناك، أين يمرّ التاريخ على أمر دون أن يعيره اهتماما فلا يسمّيه.

يقف هكذا أمام البديهيّ من الأمور، يفرش سجيّتها المحضة ويحوّلها إلى نقطة للوقوف. يلتقط من الشوارع ما نمرّ أمامه مسرعين فيتجمّد أو يذوب في الوقت، كلّ ما نرميه بنظرة خاطفة لا تفي باجتثاثه من حقله، كل شيء قابل للاحتراق بفعل التجاهل، كل شيء منذور إلى التلاشي، ليس بفعل الزمن لكن بلسعات الملح المتكدسة. ملح العرق والأرض والماء.

تولد العناصر والأشياء من خصر اللامرئيّ في لوحاته، وأكثر من ذلك، هي تنبعث في طريق بحثه الحثيث عن العنصر النّاقص، ذلك الشيء الذي لا ندركه إلاّ حين نحصل عليه. هناك دوما نقطة للانطلاق في عمله، لكنه لا يُبدي أبدا تكلّف الرغبة في الوصول إلى نهاية ثابتة فهو يخلق في طور البحث. هكذا يلقي بأشيائه المرسومة في قلب الفراغ، وتصبح كل لوحة مساحة مفتوحة، تدعو المشاهد لاستكشاف آفاق لا نهائية من التمثّلات.

عمليّة الاستكشاف هذه لا تحصل بتلك البديهية، هناك عالم من التفاصيل يختزله الفنان في موضوعه بشكل يخترق العين لتقول "هذا ما كنت أراه دون أن أراه". مرورا عبر استبطان عميق لما حوله، يسترجع شذرات من الواقع المحيط به، ليقوم بعد ذلك بإخراجها من سياقها الأصلي. هذه الحركة العازلة عمدًا تخلق مسافة بين المرسوم والعالم من حوله، وكأنها قطيعة مع تدفق الحياة اليومية المستمر. وهكذا، يُحوّل تفاصيل الحياة اليومية التي دائما ما تكون غير ملحوظة إلى موضوعات فنّه الرئيسية.

ألسنة البلّور المغروسة على الجدار، اعوجاج الزنك، حائط أثريّ ملطّخ بالإسمنت، رمانة مشقّقة، مضربة ممزّقة أو لمبة محروقة، يفتح أمين أبواب التأويل عبر نفق الشروخ التي تتسحّب إلى موضوعه ببديهيّة الزمن وتسكن إليه ليعشّش الصّدأ فيها. ليس الشرخ بالضرورة مرئيّ، هناك وجوه ملتئمة فوق طبقات لا تندمل جراحها، وأقفاص صدرية تسيّج أرواحا مكسورة، هنالك يغوص دون أن يبدي ذلك. فهو يرسم العاديّ من الأمور "ببساطة الماء". يتوقّف أمام صمت الأشياء وسكونها المطبق دون سعي لتعطيل حركة الزمن، بل تمثيلا لمخلّفاته، كالصّدإ الذي يأكل يافطة المحطة أو شحوب الألوان في كلّ شيء.

العاديّ من الأمور هو المتروك منها، يتّخذ بشكل ما محلّه في حياتنا لكنّنا لا نوليه بالضرورة عناية التفكير والاهتمام. هناك من العاديّ ما يتحكّم بنا، ينتصب كرسيّا في رحاب اللاوعي ويدفعنا نحو أشياء نظنّ أنّ دوافعها أخرى. في خسارة الحياة والوقت لحاق محموم خلف الاستثنائيّ الذي يلفّه الزمن فيفقد بريقه وينطفئ، وتتجدّد رحلتنا نحو البحث عن بريق آخر. في خسارة الحياة بحث مضن عن النّور دون إدراك لقيمة العتمة، والعوالم التي تقبع تحت الأرض وخلف الظلال. في خسارة الحياة انبهار بالجميل ونكران لبراءة الرديء ولحقيقية القبح. بعيدا عن المفاهيم، وعن مقاييس الجمال والقبح، يلتصق أمين باللحظة التي تُستنفذ فيها كلّ إمكانات التحديد والتسمية والعنونة، ويصبح التلاعب بالمساحات والفراغات والتأرجح بين الكثافة والضآلة، طريقة لمفهمة العالم من جديد وإعادة رسم لأولوياته.

يستعيد في رسمه المهجور والمتروك واضعا عين المُشاهد أمام معضلة الحدود بين التأويل والخيال. نحن أمام مشهد عاديّ ومألوف، لكن دائما ما تكون مجالات تأويله محدودة جدّا. إلى ما سيُحيلنا مشهد مضربة ملقية أو عامل بناء واقف فوق خشبة تستند على الفراغ؟ لكنه في نفس الوقت يخلق المساحة البيضاء التي تحيط بكلّ عنصر، وهي دائما ما تكون شبيهة بغمامة كثيفة جدا لكنها بيضاء، تتعلّق بها أنظارنا في حيرة فلاح بانتظار الماء. هل يدخل هذا الانتظار في خانة الخيال أو التأويل؟ أم أنّه فقط مدعاة للتحسّر على شيء ما، لا نعرفه، لكن أردناه أن يكون. هكذا يعلّق الرسام أشياءه وسط جوّ تحيلنا شدّة صفائه إلى عاصفة نستشعر قدومها لتنقذنا من عزلة الوجود، لكنّها بدورها معلّقة هناك، خلف اللوحة.

شيماء العبيدي
جانفي 2025